مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد: 03. عدد: 02 السنة :2002

"الإسلام الجزائري من خلال كتابات المستشرقين الفرنسيين"

« Algerian Islam through the french orientalist'swritings »

د.قاسي فريدة

الملخص: شكّل الاستشراق الفرنسي مرحلة مهمّة في دعم الاحتلال الفرنسي للجزائر خاصة على مستوى معرفة خصائص المجتمع الجزائري وهويته وعاداته وتقاليده، وقدّم المستشرقون أبحاثا كثيرة في المجال الديني واللغوي والتاريخي كما اهتمّوا بدراسة العادات العربية والبربرية، وكان الإسلام محلّ اهتمام كبير من طرفهم كدين وعقيدة للمسلمين الجزائريين.

فما هي أهمّ الطّروحات الفكرية للمستشرقين الفرنسيين حول الإسلام كدين وعقيدة للمسلمين الجزائريين؟

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الاستشراق الفرنسي، الإسلام، الهويّة، المجتمع الجزائري.

Abstract : The french orientalismwas an interesting stage in supporting the french occupation of Algeria, especiallyat the level of knowing the characteristics of the algerian society, itsidentity, its customs and traditions. The orientalistspresented a lot of research in the linguistic, religions and historicalfields, theyalsostudiedarab and barber customs.

What are the most important intellectual propositions of French orientalists about Islam as a religion and doctrine for the Algerian muslims ?

Keywords : Orientalism, French orientalism, Islam, Identity, Algerian society.

المقصود بالاستشراق هو دراسة الغربيين للشرق وأممه في لغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته، يقول إدوارد سعيد: "الاستشراق بالمعنى الدقيق مجال من مجالات البحث العلمي، ويعتبر الغرب المسيحي أن الاستشراق بدأ وجوده الرسمي بالقرار الذي اتخذه بإنشاء سلسلة من كراسي الأستاذية للغات الشرقية العربية، اليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا..."[1].

إذن الاستشراق هو ظاهرة ثقافية وحركة علمية تهتمّ بدراسة كل ما يتعلّق بالشرق وحضارته من قوى روحية وآثار فكرية وأدبية وفنية[2] أما المستشرق فهو العالم باللغات الشرقية والذي يأخذ معارفه من مصادر الشرق حيث انصبّت اهتمامات المستشرقين على دراسة النصوص التراثية التي تزخر بها المكتبات الشرقية لشتّى مناحي الحياة الثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسيّة وكذلك الدينية.

كان الدّافع الديني وراء حركة الاستشراق فقد رغب النصارى في نشر دينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنّى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم إلى العالم الإسلامي، فالتقت مصلحة المبشرين مع أهداف المستعمرين، وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأنّ النّصرانية تكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق[3]. لهذا بدأت حركة الاستشراق مع الرهبان، هؤلاء الذين كان همّهم الطعن في الإسلام وتشويه محاسنه وتحريف حقائقه ليثبتوا للشعوب التي تخضع لزعامتهم الدينية أنّ الإسلام هو الخطر الوحيد للمسيحية[4].

ويعتبر الاستشراق الفرنسي أحد ثمار الحركة الاستشراقية الأوروبية المعاصرة التي ترمي إلى إحياء تراث أوروبا وفضولها العلمي، فقد أشرف على الحركة الاستشراقية في فرنسا جيل من المستشرقين أمثال سلفستر دي ساسي، لويس ماسينيون وساعدت أعمالهم خاصة في مجال تحقيق المخطوطات والترجمة والموسوعات على تطوير معرفة عميقة بالشرق العربي[5]، ويعتبر كوليج دي فرانس نقطة الانطلاق الحقيقية الرسمية للدراسات العربية في فرنسا، تلك المؤسسة التي أوجدها الملك فرانسوا الأوّل سنة 1530 وعيّن سنة 1538 جيوم بوستالGuillaume Postel في هذا المعهد مدرّسا لكل من اللغات اليونانية والعربية والعبرية[6].

---

[1]- إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانشاء، (ط.1)، نقله إلى العربية كمال أبوديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981م، ص80.

[2]- محمد العربي معريش، الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية (1822-1872م)، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009، ص27.

[3]- عبد الرحمان عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، بيروت، ص95.

[4]- مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، (د.ط)، دار الورّاق للنشر والتوزيع، ص 18.

[5]- فلوريال سناغوستان،"الاستشراق الفرنسي: ضرورة مثيرة للجدل"، حوليات جامعة كلية الآداب، المجلد 1، ع1، 2004، ص21.

[6]- المقال نفسه، ص 23.

ثم تأسّست مدرسة الفتيان للّغات «Ecole des jeunes de langues» التي انشأها الملك لويس الرابع عشر سنة 1685 والهدف منها تلقين الفتيان الطلبة اللغة التركية لأهميتها الدبلوماسية والاقتصادية مع الدولة العثمانية.

كما يعتبر المعهد الوطني للّغات الشرقية المرحلة الثالثة لترسيخ دراسة العربية وغيرها من اللغات الشرقية في النظام التعليمي الفرنسي، فقد تأسس هذا المعهد سنة 1795م بعد الثورة الفرنسية، وكان ينص مرسوم التأسيس على ضرورة تعليم العربية الفصحى إلى جانب العامية وعلى وجوب تأليف كتب في النحو العربي باللغة الفرنسية يستفيد منها الطلاب، وأول أستاذ تسلّم الكرسي في العربية الفصحى "سيلفستر دي ساسي" صاحب كتاب هام "النحو الواضح لطلاّب معهد اللغات الشرقية" الذي لقّن العربية خلال 43 سنة من (1795إلى 1838م)[7].

لقد كانت حركة الاستشراق حركة استعمارية، واستفاد الاستعمار بصفة كبيرة من التراث الاستشراقي وتجنيد طائفة كبيرة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه، وظهرت هذه الأهداف جلية باتّساع الرقعة الاستعمارية للعالم الإسلامي (مغربه ومشرقه) فاضطرّت الدول الاستعمارية أن تعلم موظفيها في المستعمرات لغات تلك البلاد وتدرّس لهم دينهم وآدابهم[8].

وقد وظّفت فرنسا الاستشراق وجهود مستشرقيها في احتلال الجزائر سنة 1830م وهذا بالبحث في تراثها العربي الإسلامي من خلال اللجان العلمية والجمعيات الأثرية المتخصّصة حيث شكّل الاستشراق الفرنسي الوجه الفكري للتوسّع الاستعماري في الجزائر[9].

فقد اعتبر الاستشراق الفرنسي أن الشعب الجزائري ليس له تاريخ أو حضارة وأنّه شعب متخلف ومتوحش، ذلك أن العقل الجزائري كان وما يزال راكدا ومتحجّرا أمّا العقل الأوروبي الديكارتي -بحسب تصوّرهم-فهو عقل جامع متضلّع في ميادين المعرفة ويجوب آفاق الحياة يكتشف أسرارها ويحاول السيطرة على المجهول والمخفي منها[10]، وبالتالي إقرار نظرية الغالب والمغلوب والحتمية الحضارية.

وتتجلّى بدايات الاستشراق الفرنسي في الجزائر في البيان الذي وزّع على الجزائريين، حيث وظّف المستشرقون الترجمة في أغراض الغزو والاحتلال، فالخطّة التي صاغها "كليرمونت دوتونير" لاحتلال مدينة الجزائر والتي تمّ عرضها على البرلمان الفرنسي

[7]- المقال السابق، ص 24.
[8]- وليد كاظم الخشن، المدرسة الاستشراقية في فرنسا، "دراسة في أسلوبها ومنهجها"، دار مؤمن للترجمة والنشر، بغداد، 2013، ص 28.
[9]- محمد العربي معريش، الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية، ص 235.
[10]- يسلي مقران، "موقف فرنسا من الثقافة الجزائرية أثناء الاحتلال"، المبرز –مجلّة فكرية أدبية-، ع 13، 1999، ص ص 74-75.

بحضور الملك شارل العاشر في 14 أكتوبر 1827م كانت محرّرة بالعربية الفصحى ونقلها سلفستر دي ساسي إلى اللسان الدّارج[11].

وسعى ضباط المكاتب العربية لتعلّم اللغة العربية ومعرفة تقاليد المجتمع الجزائري بهدف إحكام السيطرة عليه، ذلك أنّ الهدف الاستعماري لم يكن ليقف عند مآرب مادية بحتة بل تجاوز ذلك إلى محاولة تشكيل الفكر الأهلي حسب التصوّر الاستعماري[12] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهم المجتمع الجزائري من حيث العقيدة الإسلامية والتاريخ والعادات والتقاليد.

والاستشراق يسلّط الضوء على الدّول التي واقعها الإسلام ولغتها هي اللغة العربية فالامتداد الحضاري الإسلامي يشخّص وتجرى عليه جميع التحليلات التي تفضي إلى احتوائه وبسط السيطرة عليه، وعندما فتحت مظلة الاستشراق انشغل الغربي بدراسة الشرقي، وانشغل المسيحي بدراسة المسلم والمتحضّر انشغل بدراسة المتخلّف والمستعمر بالمستعمر وفقد الاستشراق أهمّ عنصر وهو عنصر الإنشاء والشرعية.

إنّ دخول الإسلام إلى الجزائر كان عامل قوّة خالدة منح للجزائريين العقيدة الصّحيحة التي ربطت سلوكهم وافكارهم واللغة العربية التي عبّرت عن أحاسيسهم وشعورهم، فلقد أكسب الإسلام الجزائر حضارة قارّة تقوم على الدين الإسلامي كمنهج حياة والعربية كلغة تفكير وتعبير، بالمقابل ساهم الجزائريون في الامتداد الحضاري الإسلامي على جميع المستويات الثقافية والفنية والأدبية والسياسية، هذا العمق التاريخي الحضاري هو الذي جعل فرنسا تفكّر في احتلال الجزائر لتنزع عنها صفة وحدة الأرض ووحدة التاريخ ووحدة الدين ووحدة اللغة والثقافة والمصير المشترك.

كان أول خطاب استشراقي تمّ توزيعه على الأهالي عشية الاحتلال الفرنسي البيان الفرنسي سنة 1830م[(13)] الذي حمل بين سطوره معرفة جيّدة بالمكونات السياسيّة والاجتماعية والثقافية السّائدة في المجتمع الجزائري-العثماني، حيث احتوى البيان على مجموعة من الحقائق الزائفة:

- أنّ الفرنسيون قادمون لتحرير الجزائر من الاستعمار التركي.
- وعدوا باحترام الدّين الإسلامي وتشريعاته والتقاليد والممتلكات وأنّ الجزائريين سيبقون أسيادا في بلادهم.
- أنّ الخطاب كان موجّها في أغلبه للمشايخ والقضاة والأئمة أصحاب النفوذ والاحترام في المجتمع لاستمالتهم وتغريرهم.

كما ورد الخطاب الديني في معاهدة الاستسلام 5 جويلية 1830م حيث تعهّد دي بورمون باحترام المقدّسات وحرية الدين للجزائريين وممارسة شعائرهم واحترام المرأة والممتلكات

[11]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 198.
[12]- صالح فركوس، ضبّاط المكاتب العربية، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 225.
[13]- الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدّد مهامه خاصة في الجزائر، (ط.1)، الجزائر، 2004م، ص 35

والعادات والتقاليد: **"إقامة الشعائر المحمّدية تكون حرّة ولا يقع أيّ مساس بالحقوق وبحرية السّكان من مختلف الطّبقات ولا بدينهم ولا بأملاكهم ولا بتجارتهم وصناعتهم وتحترم نسائهم، والقائد العام يتعهّد بذلك عهد شرف..."**[14].

لكنّ فرنسا سرعان ما أخلفت وعودها ووجّهن الاستشراق والياته لخدمة أهداف الاحتلال، وكان إنشاء مدرسة اللغات الشرقية هي الانطلاقة الفكريّة للاستشراق الفرنسي والدّراسات العلمية والأدبية في الجزائر واستدعى هذا حضور مخبر علمي من المستشرقين والمترجمين لمعرفة واقع البلاد المستعمرة، فأثناء الحملة الفرنسية على الجزائر جاء عدد كبير من المترجمين والفنانين والأثريين، انطلق كل فريق في ميدانه ابزهم جوني فرعون وشيربونو وبيير بروج، كتبوا عن السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم عن الدين، الثقافة الشعبية، التاريخ والتربية والتعليم والمرأة وغيرها.

وقد روّج المستشرقون الفرنسيون لأطروحات متعددة من شأنها التمكين للاستيطان الفرنسي في الجزائر، هذه الأطروحات تستهدف المقوّمات الأساسية التي تكوّن المجتمع الجزائري كالدين واللغة والتاريخ.

فبإسم الرسالة الحضارية عمل الأثريون–من خلال الجمعيات المتخصصة- على إبراز الامتداد الحضاري للجزائر إلى الحضارة الرومانية وتناول المستشرقون الإسلام وربطوه بالكنيسة ونشر الدين المسيحي.

يقول جاك بيرك في هذا الصدد: "إنّ عهد الاحتلال الفرنسي بالنسبة للجزائر هو عهد التحرّر الحضاري من وصاية الشّرق ودخولها بفضل فرنسا تحت وصاية الغرب وبالخصوص تحت مظلّة سكان بلاد الغال حيث تفقد الجزائر هويتها وتندمج اندماجا كلّيا في شعب اخر فرض نفسه عليها بمختلف الوسائل"[15].

من هنا جاء اهتمام المستشرقين بدراسة الإسلام وعقيدته وسيرة رجاله وموقفه من التمدّن ومن النّصرانية، إضافة إلى فهم هذا الإسلام وتفسيره تفسيرا يتماشى ومصالح فرنسا الاستعمارية، ويلقون عليه عبارات جديدة مثل الإسلام الجزائري. ويعتبر ضباط المكاتب العربية الجيل الأوّل للمرحلة الأولى من الاستشراق، حيث بادروا لدراسة الإسلام الشعبي ودور الزوايا والطّرق الصّوفية بحكم أنّ المعتقدات الدينية الشعبية مصدر للقوة الروحية والمقاومة الوطنية، فركّزوا على دراسة الزوايا والكشف عن خباياها وأنماط تنظيمها ومن ثمّ التمكن من تفكيك قوّتها العسكرية ونفوذها السياسي. ومن أبرز هذه الدراسات كتاب

[14]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية (1830-1900م)، (ط.1)، ج1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ص ص 106 107.
[15]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ج6، ص294.

« Louis Rin, Marabout et Khuans, étude sur l'Islam en Algérie, 1884 »

« Octave dépont et Xavier copolanie, les conferies religieuses musulmanes, 1897 »

ويعترف L.Rin أنّ لفرنسا مصلحة سياسية واستراتيجية في ضبط عدد الفرق الدينية ومذاهبها وطرق عملها وتنظيماتها وبالتالي استغلالها لخدمة مصالحها[16]، يقول سعد الله: **"إنّ الهدف البعيد لهؤلاء المستشرقين على شاكلة لويس رين هو تجريد الجزائريين من أبطالهم واتهامهم بالإيمان بإسلام جزائري هو أقرب على الخرافة منه إلى العقيدة الراسخة الواعية"**[17].

أما المستشرق "ألفرد لوشاتوليي"[18]وخلال ثمانون عاما أنتجنا فيها نموذج للإسلام (الإسلام الجزائري)، إسلام من دون أوقاف ومساجده تابعة للإدارة الفرنسية وقضاته موظّفين، وخليط من الشرع الإسلامي والتشريع الفرنسي فليس هناك مجال للعودة إلى الوراء لأسلمة الجزائر، لقد حدث الضرر إذ قمنا بإضعاف المسلمين بشكل منهجي.

كما قام الفرد بل Alfred Bell (1873-1945م) بدراسة اللغات والدين الإسلامي والعادات والثقافة الشعبية، وإضافة إلى دوره الكبير في مدرسة تلمسان شغل وظيفة ثانية وهي وظيفة مفتّش مدرّسي المساجد في ولاية وهران طيلة عشرون سنة، ولم يهتمّ بالدراسات اللغوية التي كانت سائدة بين زملائه بل تخصّص في التاريخ الديني والعلمي والفني والحضاري لبلاد المغرب الكبير ومن إصداراته كتاب(صدر الجزء الأوّل منه في باريس سنة 1938م باللغة الفرنسية):

« La religion musulmane en Berberie »

لقد تمّ تحليل الإسلام على أنه تعصّب وشكلا من أشكال المقاومة، عبر عن هذا إدموند دوتي في كتابه الذي نشره سنة 1900م بعنوان "الإسلام الجزائري" الذي عبر عنه أنّه اسلام الدّروشة والسّحر وأكّد على فكرة استمرار البقايا الوثنية على مستوى بنية الدّين الشعبي، وبالنسبة لعبادة الأولياء فقد أرجعه "دوتي" على التوحيد الإسلامي الجاد والمغالاة في التوحيد وألغى كل الروابط الملموسة بين الله والمؤمنين ممّا دفع بالنّاس إلى البحث عن وسائط وهم "الصّلحاء"، ودعم طرحه هذا بمؤلفه: "السّحر والدّين في إفريقيا الشمالية".

---

[16]- لويس رين، مرابطون وإخوان، ص56.

[17]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث واراء في تاريخ الجزائر، ص29.

[18]- "لوشاتوليي" صاحب كرسي "سوسيولوجيا الإسلام" الذي تأسس سنة 1902م بالكوليج "دو فرانس" واهمّ الدراسات التي أنجزها:

A. le chatelier, politique musulman colonial, Revue le monde musulman, Paris, septembre 1910.

للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص75.

والخلاصة أنّ الدراسات الاستشراقية الفرنسية في الجزائر ركّزت على مسألة الدّين الإسلامي عبر مرحلتين، المرحلة الأولى 1830-1870م التي تميّزت بجهاز ترجمة قوي وتكوين المكاتب العربية، واشتغال المستشرقون في اللجان العلمية الاستكشافية والجمعيات الأثرية لمعرفة تفاصيل الحياة العامة للمجتمع الجزائري العربي المسلم. أما المرحلة الثانية 1870-1930م والتي تأسست فيها جامعة الجزائر وانعقد مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر تحت إشراف "رينيه باصيه" (عميد المستشرقين) في الجزائر، فكانت الأبحاث المتنوعة حول الإسلام الجزائري لضرب هوية الشعب الجزائري تحكّم إدارة الاحتلال في المؤسسات الدينية وتحقيق السيطرة الفكرية والثقافية إلى جانب السيطرة العسكرية والسياسية.